تعلمت من يوسف عليه السلام

تلخيص المحاضرة التاسعة

أصعب لقـــاء

- **المقدمة**

- خرج يوسف عليه السلام من السجن بريئاً عزيزاً ممكناً في الأرض، بعد سنين من البلاء والصبر والثبات، ليحقق الله وعده {وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ } (يوسف: ٥٦). اختاره الملك ليكون على خزائن مصر، لما لمس فيه من حكمة وتدبير وأمانة، فقال يوسف: { قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ } (يوسف: ٥٥)، فأسندت إليه مهمة عظيمة في ظرف عصيب: أن يدير شؤون البلاد في سنوات الرخاء، استعداداً لسنوات المجاعة القادمة.

- أبدع يوسف عليه السلام في إدارة اقتصاد مصر، فخزن الحبوب في سنابلها لتبقى صالحة لسنوات طوال، وأشرف على التخزين والتوزيع بحكمة واقتدار. لم يكن مجرد مسؤول مالي، بل كان قدوة في الزهد والتواضع، يعيش كأحد الناس رغم سلطته، كما فعل نبينا محمد ﷺ من بعده، إذ قالت عائشة رضي الله عنها : "ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض" [رواه مسلم].

- ثم جاء زمن القحط، واشتدت المجاعة حتى وصلت الشام، فجاء إخوة يوسف من غير أن يعرفوه، يلتمسون القمح من مصر. فوقف أمامهم يوسف عليه السلام بعد سنين من الفراق، وهم لا يدرون أن الذي يملأ عيونهم مهابة هو أخوهم الذي ظلموه. طلب منهم أن يأتوا بأخيهم من أبيهم - بنيامين - ليكتمل اللقاء، متمسكاً بخطة ربانية لا يقودها الانتقام، بل لم الشمل.

- ورغم الحزن الذي يعصر قلب يعقوب عليه السلام، وافق على مضض أن يرسل بنيامين، بعد أن أخذ عليهم موثقاً غليظاً، خوفاً من أن يُفقد كما فقد يوسف من قبل. { لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ } (يوسف: ٦٦).

- وفي هذه المرحلة، لم تكن مصر مجرد دولة تبحث عن نجاتها، بل أصبحت قبلة لجوعى العالم، وقيادة يوسف النبوية مثال يحتذى به في إدارة الأزمات، وتغليب الصالح العام على الهوى والانتقام.
- قصة يوسف في هذا الجزء تحمل دروساً خالدة في القيادة بالعدل والإحسان في المحنة، والتقشف مع القدرة، والتخطيط بعيد النظر، والرحمة حتى مع من أساء. لقد كان يوسف عليه السلام نموذجاً في الجمع بين الإيمان والعقل، وبين الحكم والخلق، فاستحق أن يكون قائداً وزاهداً ونبياً في آن .

ثبات يوسف عليه السلام وعفوه في مشهد اللقاء مع إخوته : تجليات الصبر والنبل النبوي

- في مشهد عظيم، تجلت فيه المعاني السامية للنبل والصبر والثبات الانفعالي، يقف يوسف عليه السلام في ملكه، محاطاً بالخدم والرعية، منشغلاً بشؤون الحكم، حين دخل عليه إخوته الذين كانوا يوماً السبب في غربته ومحنته. لقد عرفهم فوراً، رغم أنهم لم يعرفوه، فقد تركوه وهو صغير السن، أما هم فكانوا كباراً حين افترقوا، ولم تتغير ملامحهم كثيراً.
- وهنا يمتحن يوسف عليه السلام في موقف يكاد يعجز عنه كثير من البشر. تخيل أن من حاولوا قتلك، والذين فرقوك عن أبيك، وباعوك عبداً، وألقوك في غيابات السجن، قد صاروا الآن تحت سلطانك. تستطيع بكلمة أن تنتقم، أن تعاقب، أن تذلهم. لكن يوسف لم يفعل شيئاً من ذلك، بل أظهر أعظم صور التحكم في النفس، وضبط الانفعال، والحلم، والعفو. لقد تلخصت دورات الثبات الانفعالي كلها في تصرفه هذا.
- ما أروعه من موقف، لم يظهر على وجهه انفعال، ولم تتغير نبرة صوته، بل قابلهم بهدوء واتزان، تعامل معهم برقي، بل وأحسن إليهم. هكذا يعلو الإيمان بصاحبه، وهكذا تتسامى الروح، حتى ترى مظالم البشر صغيرة لا تستحق الرد. لقد ارتقى يوسف عليه السلام، وتطهر قلبه بالإيمان، فزالت منه الضغائن، وسكنه الصفح.
- وكان حرياً بنا أن نتعلم من هذا الموقف أن العفو لا يزيد صاحبه إلا عزاً، وأن التواضع سبيل للرفعة، كما قال النبي ﷺ : "وما ازداد عبد بعفو إلا عزا". وحين أمر الله بدفع السيئة بالحسنة، ختم الآية بقوله: { وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } (فصلت: ٣٥)، وكأنما ينبهنا أن هذه المرتبة ليست لأي أحد، بل لمن امتلك صبراً وخلقاً عظيماً.

- ومن الفوائد الجليلة أن المظلوم لا ينسى من ظلمه أبداً، قد ينسى الظالم ظلمه، لكنه يظل محفوراً في قلب من ظلم، إما أن يعفو، وإما أن يأخذ حقه يوم القيامة. ولذا فليحذر الإنسان أن يظلم، وليعلم أن الله لا ينسى.
- وفي المقابل، ترسل القصة رسالة محبة، أن الأخ يظل أخاً مهما فعل، وأن الشيطان هو العدو الحقيقي. فها هم إخوة يوسف يعودون إليه، ويتصالحون بعد طول فرقة. وقد كان يعقوب عليه السلام يعلم أبناءه هذه الحقيقة، أن الشيطان هو سبب التفرقة.
- ومن الإشارات الدقيقة في الآية: { فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ }، جاء حرف الفاء ليشير إلى سرعة دخولهم على يوسف، رغم أنهم أجانب، مما يدل على عدله وسهولة الوصول إليه، فلم تكن بينه وبين الناس حواجز. وهكذا ينبغي لأهل الولايات أن يكونوا في خدمة الناس، قريبين منهم.
- وفي حواره مع إخوته، كشف يوسف عليه السلام عن دهاء في استدراجهم بالمحادثة ليعرف حال أبيه وأخيه بنيامين دون أن يشكوا فيه. فسألهم عن سبب قدومهم، ومن أي أرض، فاعترفوا أنهم من كنعان، وأن أباهم يعقوب لا يزال حياً، وأن لهم أخاً أصغر هلك في البرية ـ في إشارة لكذبتهم القديمة ـ وأن أخاه الآخر بقي مع الأب.
- وحين أراد يوسف أن يرى أخاه بنيامين، قال لهم: { وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ }، ووصف نفسه بالإحسان في الكيل وحسن الضيافة، ثم توعدهم بحرمانهم من الكيل إن لم يأتوا به. وهنا تعهدوا بمحاولة إقناع والدهم.
- وقد أشار يوسف لأخيه بأنه "من أبيكم"، لأن بنيامين كان أخاً شقيقاً له، بخلاف باقي الإخوة من أم أخرى، في تلميح أن التعدّد في الأزمنة السابقة كان مشروعاً، بل من سنن الأنبياء، كما في حال يعقوب وداود وسليمان عليهم السلام
- واستطراداً، فإن التعدّد مشروع في الإسلام بشروط العدل في القسم والمبيت وليس في الميل القلبي الذي لا يملكه الإنسان، ومن لم يستطع العدل فعليه بواحدة، كما أمر الله.
- إنها قصة عظيمة، ومشهد بديع يُجسد العفو عند المقدرة، والحلم في موطن الغضب، والتواضع في لحظة العزة، والرحمة في موقف كان يظن فيه الانتقام. فلنتأمل ونتأسى، فبهداهم اقتده.

فقه التعدد وحنكة يوسف عليه السلام دروس شرعية واقتصادية من القرآن الكريم

هناك تأملات إيمانية وتربوية في قضيتين مهمتين مستوحيتين من القرآن الكريم، وهما: حكمة تشريع التعدد في الإسلام، والبعد الاقتصادي في تصرفات يوسف عليه السلام، مبرزاً الفهم الوسطي والمقاصدي في الأحكام، ومستلهماً دروساً عملية من سلوك الأنبياء عليهم السلام في إدارة شؤون الحياة.

فقه التعدد بين الكراهة الجبلية والرضا الشرعي

قال تعالى: { فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ } وهو تشريع إلهي يراعي المصلحة الغالبة في المجتمع، رغم ما قد يترتب عليه من ضرر نفسي أو عاطفي لدى المرأة، إذ لا تنكر الغيرة الطبيعية التي تكتوي بها قلوب النساء عند ذكر الزواج بثانية، فـ "لا توجد امرأة ترضى بأن تشاركها أخرى في زوجها"، كما ورد في الحديث التلقائي في نفوس النساء.

لكن ينبغي التمييز بين الكراهة الجبلية التي لا يؤاخذ بها الإنسان، والكراهة الشرعية التي إن وجدت تفضي إلى رفض ما أنزله الله، وهذا مما ذمه القرآن: { ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ }.

فالمؤمنة ينبغي أن تحب ما شرعه الله، وإن كرهته جبلتها، تماماً كما في القتال الذي كتب علينا وهو {كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ}، لكننا نحبه لأن الله أمر به.

إذاً فرفض التعدد شرعاً لا يجوز، أما الكراهة الفطرية الطبيعية فهي معفو عنها، والموقف الصحيح هو التوازن بين الأمرين: محبة التعدد لكونه من شرع الله، مع التسليم لما يطرأ من مشاعر إنسانية مؤلمة للمرأة.

الحكمة الاقتصادية ليوسف عليه السلام في إدارة الأزمة:

في قصة يوسف عليه السلام، نقرأ قوله: { أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ }، وهو يشير إلى الوفاء والكرم في المعاملة، فيُعطي الكيل كاملاً، بل ويزيد كما كان يفعل النبي ﷺ حين قال: "زِنْ وأَرْجِحْ". هذه أخلاق الأنبياء التي تحبب الناس إليهم، فالإحسان البسيط في المعاملات، كزيادة يسيرة في الكيل، تكسب القلوب.

ثم قال: { فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ }، وهذا مزج بين اللين والحزم، وبين الترغيب والترهيب، وهو أسلوب تربوي فعال.

- لكن اللافت هو استخدام يوسف عليه السلام لقوته الاقتصادية في التأثير على قرارات الآخرين. فقد استطاع أن يفرض على إخوته الالتزام بشروطه لأنه يملك "قوتهم"، ومن يملك القوت يملك القرار. وهذا درس سياسي واقتصادي بالغ الأهمية، حيث إن الاستقلال الاقتصادي يحقق الاستقلال في القرار السياسي، والعكس صحيح، فالحاجة إلى العدو تمكنه من فرض إرادته. لذا يجب على الدول الإسلامية السعي للاستغناء الاقتصادي لتستقل في قرارها.

- كذلك فإن المقاطعة الاقتصادية تعد وسيلة مشروعة للضغط، وقد أثبتت فاعليتها في مواقف سابقة مثل الإساءة للنبي ﷺ ، حيث كانت وسيلة فعالة للضغط وإعادة النظر في بعض السياسات الغربية.

لماذا رد يوسف عليه السلام ثمن البضاعة لإخوته؟

قال تعالى: {وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}. وقد ذكر المفسرون ثلاثة احتمالات لهذا التصرف الكريم:

١. الاحتمال الأرجح: أنه خشي ألا يجدوا ثمناً يعودون به في العام القادم، فرد إليهم البضاعة ليضمن عودتهم، وهذا أرجح الأقوال.

٢. الاحتمال الثاني: أنه استنكف أن يأخذ مالاً من أبيه وأهله، ووجد في نفسه حرجاً من ذلك، فرد المال كرماً وحياءً.

٣. الاحتمال الثالث: أنه أراد أن يستشعروا الحرج والتورع، ويضطروا للرجوع إليه ثانية، مما يشكل ضغطاً معنوياً على يعقوب عليه السلام لإرسال بنيامين معهم.

- جميع هذه الاحتمالات واردة، وأقواها أن يوسف عليه السلام تصرف ببصيرة اقتصادية لضمان عودتهم، واستثمر ماله في تحقيق مقصده النبيل.

{ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا۟ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ }- تأملات إيمانية في مشهد من قصة يوسف عليه السلام

- في هذا المشهد المؤثر من سورة يوسف، نرى كيف أن إخوة يوسف يعودون إلى أبيهم يعقوب عليه السلام بعد رحلتهم، ولكنهم، كما هي عادتهم، يبدؤون بالكلام السيئ قبل أن يُسعدوا أباهم بأي خبر

طيب. فيقولون مباشرة: { مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ } دون تمهيد، دون تقديم الخير الذي جاءوا به، مما يكشف عن خلل في أسلوبهم وسوء تقدير لمشاعر والدهم. كان يمكنهم أن يذكروا الخير أولاً ثم يلحقوه بالحاجة، لكنهم اختاروا الطريقة القاسية، وكأنهم اعتادوا أن يلقوا على أبيهم ما يكره سماعه.

أسلوبهم الجارح وتكرار الألم:

- لم يقف الأمر عند سوء تقديم الكلام، بل زادوا الأمر إيلاماً عندما قالوا ليعقوب: { فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ }.
- هذه الجملة بعينها كانت سبب جرح سابق لا يُنسى، وهي ذات العبارة التي استخدموها من قبل عند طلبهم يوسف، والتي تبعها ضياعه. وكأنهم بذلك أعادوا فتح الجرح القديم في قلب أبيهم، وأثاروا ذكريات يوسف وألمه الذي لم يبرأ منه قط. عندها قال يعقوب عليه السلام: {قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ }، دلالة على أن القلب ما زال يئن من ألم الفقد، وأن ثقة يعقوب في أبنائه لم تعد كما كانت.

خديعة الشيطان وسوء عاقبة المعصية

- لقد كانت نية الإخوة من التخلص من يوسف أن يخلو لهم وجه أبيهم، ولكن النتيجة كانت عكس ما تمنوا. فقد زاد تعلق يعقوب بيوسف، ثم ببنيامين، وبقيت محبتهم هم بعيدة عن قلب الأب، لأنهم سلكوا طريق المعصية وظنوا أنها وسيلة لتحقيق غاياتهم. وهذه سنة إلهية أن من طلب المصلحة من طريق المعصية، فإن الله يحرمه إياها ويبتليه بنقيض قصده. وهذا يصدق على كل من يقدم على المعصية لأجل منفعة دنيوية، سواء في المال أو العلاقات أو الطمأنينة، فلا بركة في الحرام، ولا راحة في طريق الشيطان.

التوكل الحق وفوائده العظيمة

- أمام هذا المشهد المليء بالحزن والخذلان، داوى يعقوب عليه السلام نفسه بكلمات عظيمة، فقال: {فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ }.
- هنا يظهر الإيمان الراسخ في قلب نبي الله، حيث لجأ إلى أسماء الله الحسنى لتهدئة حزنه وتسكين ألمه. فمعرفة العبد بأسماء ربه هي مفتاح الطمأنينة وقت الضيق، وسر سكينة القلب عند

الابتلاء، كما جاء في دعاء النبي ﷺ : "أسألك بكل اسم هو لك... أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي".

- فكما أن اسم "الغفور" يريح التائب، و"العزيز" يطمئن الضعيف، فإن "الرحيم" و"الحافظ" يبعثان الأمل في قلب المهموم على أحبته، ويدعوانه للتسليم والرضا بحكمة الله. وقد ظهرت ثمرة هذا التوكل في حفظ الله ليوسف، بل إن رعاية الله له كانت أعظم من رعاية يعقوب نفسه، لأن الله هيأ له بيئة تربى فيها على العز والطهر، بعيداً عن الحسد والمؤامرات، ونجاه من الفتنة، ورفعه إلى مقامات العز في قصر الملك.

الفرق بين من يتوكل على الله ومن يتوكل على نفسه

حين قال يعقوب: {فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ } ، حفظ الله يوسف. وحين قال الإخوة: {وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ }ضاع منهم يوسف وبنيامين. الفرق واضح بين من يفوض أمره لله، ومن يتكئ على حوله وقوته. فالتوكل ليس فقط في الرزق، بل هو في التربية، في حفظ الأبناء، في استقامتهم، في صلاح الزوجة، وفي الثبات على الدين. فكل من قال بصدق: "اللهم إني استودعتك أبنائي"، فإن الله يحفظهم، كما جاء في الحديث: "إن الله إذا استودع شيئاً حفظه".

رسالة إلى أهل البلاء

وإذا كان يوسف عليه السلام رمزاً للمظلومين الذين اشتد عليهم البلاء، فغزة اليوم، واليمن والسودان، وكل بقاع المسلمين المتألمين، هم يوسف هذا العصر. الألم عظيم، لكن الأمل أكبر. من يتوكل على الله، ويفعل ما بوسعه، فإن الله يجعل في البلاء رحمة، وفي المحنة منحة، ويكشف من الغيب ما لا يعلمه العبد، ويقول لنا كما قال يعقوب يوماً: { وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ }.

{فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ } ليست مجرد عبارة، بل هي عقيدة حياة بها يحيا القلب في عز البلاء، ويثبت حين تتزلزل النفوس، ويطمئن المؤمن حين يُفجع. ففوض أمرك لله، واستودع أولادك عنده، واذكره بأسمائه الحسنى، فإنه لا يضيع من لجأ إليه.

المصلحة واستخدام الألفاظ

- في سياق قصة يوسف عليه السلام، نلاحظ أن إخوة يوسف عندما كانوا يرغبون في أخذ بنيامين معهم، استخدموا عبارة { فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ } لإظهار الرغبة في مصلحة مشتركة. لكن عندما وقعوا في أزمة واتُّهم بنيامين بالسرقة، تغيرت الألفاظ بشكل مفاجئ ليقولوا "ابنك سرق". هذه النقلة تظهر كيف أن البعض قد يتلاعب بالألفاظ من أجل تحقيق مصلحتهم الشخصية. ففي الحين عندما يكون الأمر لصالحهم، يتم استخدام تعبير {أَخَانَا } ، بينما في حالة الاتهام يتغير الأمر إلى "ابنك"، وكأنهم يتبرؤون من المسؤولية.

- هذه الظاهرة ليست مقتصرة على القصص القديمة فقط، بل نراها أيضاً في الحياة اليومية. فالكثير منا، عندما يتحدث عن نجاحات أولاده، يتفاخر ويقول "ابني". ولكن عندما يكون هناك شيء خاطئ أو مشكلة، قد يتبرأ قائلاً "ابنك". وهذا يبرز نوعاً من النفاق الأخلاقي، حيث يحاول البعض نسب الفضل لأنفسهم عندما يسير كل شيء بشكل جيد، ولكنهم يبتعدون عن المسؤولية عند حدوث أي خطأ.

تأثير الإحسان في التأثير على الآخرين

- عندما اكتشف إخوة يوسف أن بضاعتهم قد ردت إليهم، بدأوا في محاولة إقناع والدهم بإرسال بنيامين معهم. قالوا له: {هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ } وهو تعبير يظهر كيف أن إحسان يوسف عليهم قد أثر في قرارهم. لكن الأكثر تأثيراً كان حديثهم عن ضرورة إطعام العائلة. وأصبح الوضع أكثر إلحاحاً عندما أشاروا إلى أنهم لن يحصلوا على الطعام في المستقبل إلا إذا عادوا إلى يوسف ومعهم بنيامين.

- إن للإحسان قوة عظيمة في التأثير على الآخرين. ففي حالة يعقوب عليه السلام، رغم الشكوك والمخاوف التي كانت تدور في ذهنه، إلا أن الإحسان الذي لمسوه من يوسف عليه السلام ساعد في تغيير موقفه. كانت الرحمة والتعامل الطيب جزءاً أساسياً من إقناع يعقوب بإرسال ابنه، وهو درس مهم في كيفية التأثير على الآخرين من خلال الإحسان.

الحلف والوفاء بالعهد

- عندما طلب يعقوب عليه السلام من أبنائه أن يحلفوا له على أنهم سيرجعون ببنيامين، كان يعلم جيداً أن هذه اليمين ستزيد من مسؤوليتهم تجاه العهد. كان يعقوب عليه السلام يعلم أن الحلف بالله يعزز من صدق التزامهم. على الرغم من أن أبناءه لم يكونوا في أفضل حالاتهم الأخلاقية، إلا أنهم قدروا الحلف وعظموا القسم، مما جعلهم أكثر حرصاً على الوفاء بوعدهم.

- من خلال هذه الحادثة، نلاحظ أهمية تعليم الأطفال احترام القسم وتعظيمه. يجب على الآباء أن يكونوا قدوة في هذا المجال، ويعلموا أولادهم كيف يقدسون اليمين ويقفون عنده. كما يجب أن يدرك الأطفال أن الحلف بالله ليس مجرد قول بل هو التزام يجب الوفاء به.

التوكل على الله مع أخذ الأسباب

- يعقوب عليه السلام أعطى أبناءه نصيحة هامة قبل أن يرسلهم إلى مصر، وهي أن يدخلوا من أبواب متعددة. كانت هذه النصيحة تدل على أنه يجب أخذ الأسباب، ولكن في نفس الوقت لا بد من التوكل على الله سبحانه وتعالى. وعندما قال { وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ }، أكد يعقوب عليه السلام على أن جميع الأمور في النهاية بيد الله، وأنه مهما فعلوا من أسباب، فإن الله هو الذي يحدد النتيجة.

- هذا الموقف يوضح مفهوم التوكل السليم. التوكل على الله لا يعني أن نترك الأمور دون أخذ الأسباب، بل يجب أن نعمل جاهدين مع إيماننا الكامل بأن الله هو الموفق. إن التوكل على الله يتطلب منا أخذ الأسباب المادية مع الالتزام بالتوكل القلبي والاعتماد الكامل على الله في النتائج.

العبرة من رقة قلب يعقوب عليه السلام

- رغم كل ما عاناه يعقوب عليه السلام من أبنائه، ورغم الأزمات التي مر بها، إلا أنه كان دائماً يراعي مصلحة أولاده. عند نقطة معينة في القصة، بدأ يعقوب يشعر بتغيير في سلوك أبنائه، وأصبح يرق لهم ويقول لهم "يا بني"، وهي كلمة مليئة بالمحبة والرحمة. هذا التغيير في اللهجة يعكس التحول في قلب يعقوب عليه السلام تجاه أبنائه بعد أن شعر أنهم بدأوا يتحسنون.

- هذه الحادثة تعلمنا أن الحب الأبوي لا يتأثر بالمشاكل والأزمات التي قد تحدث بين الأب وأبنائه. مهما حدث من أخطاء، يبقى القلب الأبوي دائماً مليئاً بالحب والرحمة، وهذه الرحمة تظل سائدة، حتى في أشد الأوقات الصعبة.

دروس تربوية من القصة

١. تعليم الأولاد احترام الألفاظ: يجب أن نعلم أطفالنا أن الكلمات لها وزن وتأثير، وأننا نستخدم الألفاظ المناسبة في كل سياق.
٢. الإحسان يفتح القلوب: التعامل الحسن والإحسان يؤثر بشكل إيجابي على الآخرين، حتى وإن كانوا في البداية في حالة من الشك أو التردد.
٣. تعظيم القسم والوفاء بالعهد: يجب على الآباء أن يربوا أولادهم على احترام القسم والوفاء بالعهود، وهذا يتطلب أن يكونوا هم أنفسهم قدوة في هذا المجال.
٤. التوكل على الله مع أخذ الأسباب: إن التوكل على الله لا يعني التواكل، بل يعني أن نأخذ بالأسباب بينما نثق بأن الله هو الميسر والموجه.
٥. الرحمة والتغيير الإيجابي: رغم التحديات، يجب على الأب أن يظهر الرحمة والمودة تجاه أبنائه، وأن يتجاوب مع التغيير الإيجابي في سلوكهم.

التوكل على الله وأثر القدر : درس من قصة يوسف عليه السلام

- إن التوكل على الله سبحانه وتعالى مع أخذ الأسباب هو أحد المبادئ المهمة التي تعكسها قصة يوسف عليه السلام. وفي هذه القصة، نجد أن هناك توازناً بين التوكل على الله، أخذ الأسباب، وفهم أن كل شيء في النهاية هو من قدر الله الذي لا يرد. في هذا المقال سنتناول عدة نقاط تتعلق بالقدر، الأسباب، والدروس التربوية المستفادة من هذه القصة العظيمة.

التأكيد على قدر الله وإرادته

- عندما كان يعقوب عليه السلام يوصي أبناءه بدخول مصر من أبواب متعددة، كان يقصد بذلك أن يحفظهم من العين والضرر، ولم يكن يقصد أن هذه الأبواب ستغير شيئاً في قدر الله. فقد أشار يعقوب عليه السلام إلى أن لا أحد يمكنه أن يمنع قدر الله إذا أراد شيئاً. وهكذا نجد أن اتخاذ الأسباب ليس بديلاً

عن التوكل على الله، بل هو جزء من العمل الذي يجب أن نؤديه. في النهاية، إذا أراد الله شيئاً فسيحدثه، مهما أخذنا بالأسباب.

- عندما ذهب أبناء يعقوب إلى مصر، كانت النية هي تحقيق مصلحة مادية، ولكن في نفس الوقت كان هناك إيمان بأن هذا كله في يد الله. وفعلاً، لم تُصب عيونهم بالعين كما كان يعقوب يعتقد. إذاً، ما كان يخاف منه تحقق أن الله قد حفظهم من العين، وهذا مثال آخر على أنه لا شيء يحدث إلا بإرادة الله، وأن الأسباب لا تمنع القدر.

نتيجة دخول الأبناء من عدة أبواب

- حين دخل أبناء يعقوب مصر من أبواب متعددة، كان ذلك جزءاً من التدبير الإلهي. فرغم أنهم كانوا يتبعون نصيحة والدهم، إلا أن هذا الفعل أدى إلى أن يلتقي يوسف عليه السلام بإخوته من بعض الأبواب، كما كان قد قدر الله تعالى. هذا يعني أن تدبير الله قد تحقق من خلال أخذ الأسباب.

- وبالفعل، كما ذكر الله في القرآن الكريم، فإن قدر الله نافذ مهما كانت الأسباب. فكما ذهبوا عشرة عادوا تسعة، وهو ما كان يعقوب عليه السلام يتوقع حدوثه، إذ أصابهم الضرر بسبب خيانتهم لأخيهم يوسف، وبسبب أعمالهم السيئة. وهكذا نرى أن الضرر الذي وقع على إخوة يوسف لم يكن بسبب عدم الأخذ بالأسباب، بل بسبب خطاياهم في الماضي.

هل أصابهم ضرر؟

- الإجابة هي نعم. لقد أصيب إخوة يوسف بالهم والغم بسبب أعمالهم السابقة من كذب وخيانة ليوسف. لكن في نفس الوقت، تحقق ما كان يخشى عليه يعقوب عليه السلام وهو عدم إصابة أبنائه بالعين. فالمصير الذي وقع عليهم كان نتيجة لذنوبهم، حيث كانت عاقبة الكذب والخيانة مريرة لهم، مما تسبب في تدمير راحتهم النفسية.

- لكن مع ذلك، ما كان يعقوب عليه السلام يخشى منه قد تحقق بأن الله تعالى قد حفظهم من العين، وأنه قضى في أمره. لذا كان ما أراده يعقوب قد تحقق بنهاية الأمر، كما قال الله سبحانه وتعالى: {مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ }.

الفائدة من العمل بالعلم

- ذكر الله تعالى في الآية الكريمة أن يعقوب عليه السلام {وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ }. هذا يعني أن علمه لم يكن مجرد معرفة نظرية، بل كان يعمل بما يعلمه من الله سبحانه وتعالى. يعقوب عليه السلام لم يكتف بالعلم فحسب، بل طبقه في حياته وفي تربيتهم.

- من هنا نستلهم درساً مهماً وهو أن العلم لا قيمة له إذا لم يعمل الإنسان به. "من لا يعمل بالعلم لا يصح أن يسمى عالماً"، فالعلم يجب أن يترجم إلى أفعال. وهذا هو سر الحكمة في تصرفات الأنبياء والمرسلين، الذين كانوا دوماً عاملين بما علمهم الله سبحانه وتعالى.

أهم الدروس التربوية

١. الحذر لا يمنع القدر: حتى مع اتخاذ الحذر والأسباب، تظل الأمور بيد الله وحده. وهذا يشير إلى أنه يجب علينا أن نتوكل على الله بعد أن نأخذ بالأسباب.

٢. بر الوالدين حتى دون فهم الأسباب: يعقوب عليه السلام كان يوصي أبناءه بأشياء قد لا يفهمون سببها بشكل كامل، لكنهم أطاعوه في النهاية. من هنا نجد أهمية طاعة الوالدين وتقدير أوامرهم، حتى وإن لم نفهم دائماً الحكمة وراءها.

٣. الاعتماد على الله في كل شيء: مهما كانت خططنا محكمة، ومهما أخذنا بالأسباب، يجب علينا أن نعلم أن الأمور في النهاية بيد الله. التوكل على الله يعني أن نؤمن بأن الله سيحقق لنا الأفضل حتى وإن كانت خططنا غير كافية لتحقيق ما نريد.

٤. عواقب الذنب مريرة: من خلال ما أصاب إخوة يوسف من الهم والغم بسبب ما ارتكبوه من أخطاء، ندرك أن الذنب له عواقب، سواء كانت نفسية أو مادية. يجب أن نتجنب الأعمال السيئة لأنها ستؤدي في النهاية إلى الألم.

٥. التعامل مع قدر الله برضا: على الرغم من أن يعقوب عليه السلام فقد ابنه يوسف وواجه العديد من التحديات، إلا أنه كان دائماً راضٍ بقضاء الله وقدره. هذه هي قمة الإيمان، أن نرضى بما قضاه الله حتى وإن كان فيه ألم.

"سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك"